

روسيا والثقافة الإسلامية

للأستاذ برهان الدين الداغستاني

كبر على الأستاذ راشد رسم أن يقول الأستاذ إخناتي كراشوفسكي أحد علماء روسيا المستعمرين : «^(١) ولا يزال بعض سكان داغستان يتكلمون بلغة عربية قديمة إلى جانب لغتهم الأصلية ، ويستخدمونها في التخاطب والكتابة حتى في نظم الشعر وفق الأوزان العربية القديمة » فقال في مقال له : « والواقع أن اللغة العربية مكانة بين هذه الشعوب لأنها لغة المدين ولغة القرآن غير أن الذين يدرسونها هم العلماء والمتفقهون الخ » وأرجو أن يسمح لي الأستاذ راشد رسم أن أوجه نظره إلى أن الأستاذ إخناتي كراشوفسكي ليس أول من قال : إن بعض الداغستانيين يتكلمون العربية ويستعملونها في التخاطب والكتابة ونظم الشعر على وفق الأوزان العربية

فقد قال ذلك من قبله سعادة رشاد بك رئيس محكمة مصر سابقاً في كتابه « سياحة في روسيا » إذ يقول : « ولناهم (بمعنى القوقازيين) أكثرها لا تقرأ ولا تكتب ماعدا الداغستان فإن لغتهم لها قراءة وكتابة خاصة بها ، وحروفها هي نفس حروف الهجاء العربية . ولكن من ضمن هذه الحروف حروف لام وكاف تحت كل واحد منهما ثلاث نقط . وهذه اللغة لا تشبه أية لغة من اللغات الشرقية ولا غيرها بل هي لغة قاعة بذاتها وفيها كلمات عربية كثيرة . وفي العهد الأخير أسسوا مطابع عديدة في « تيمور خان شورا » مركز ولاية الداغستان تطبع فيها كتب ومجلات باللغة العربية الفصحى ، وباللغة الداغستانية ... وكل معاملاتهم وسكوكهم تكتب باللغة العربية ، وعلمائهم وأئمتهم يعرفون هذه اللغة قراءة وكتابة لأنها لغة دينهم . وزيادة على ذلك فإن الداغستان يقرأون ويكتبون بالعربي ويتكلمون » . وليس هذا فقط فقد قال الأمير شكيب أرسلان في حاضر المالم الإسلامي (ج ١ ص ٧٩ - ٨٣) من الطبعة الأولى :

(١) أهرام ٩ - ٦ - ١٩٢٣ الرسالة عدد ٥١٩

« ... وبلاد الداغستان متعددة اللغات ... ولكن لسان العلم في جبال الداغستان هو اللسان العربي ، وهو اللسان الذي يتكاتب به أعيان تلك الأمة . وقد صادفت سنة ١٩١٩ الوفد الداغستاني الجركسي في « برن » قاعدة سويسرة ، ولزمهم مكاتبات إلى رؤساء بلادهم فكلفني حيدر بك بإمات بتحريرها لهم بالعربية الفصحى ، وكثير من علماء الداغستان معدودون من علماء العربية .

وجاء في الطبعة الثانية من الكتاب المذكور (ج ٣ ص ٣٦٨) : « أما الداغستان ، فهي تسمان : داغستان لركي والثاني داغستان التركي . فاللركيون يتكلمون ويكتبون بالعربية ، ومحاكمهم لسانها العربي » ولمسلي إلى هنا استطعت أن أثبت للقاري الكريم أن اللغة العربية لغة العلم والثقافة العامة في الداغستان وليست خاصة بالعلماء والمتفقهين فقط كما يقول الأستاذ راشد رسم

ولكن بقي أن نقول في أي « صر من عصور التاريخ انتشرت اللغة العربية في تلك الربوع ؟ .. وما الذي جاء بها من وراء الحدود حتى أصمدها الجبال وأزلهها الوهاد في الداغستان ؟ وفي هذا يقول الأستاذ راشد رسم : « ويرجع الفضل في انتشار اللغة العربية في القوقاز وخاصة في بلاد الداغستان والترك والشحن إلى إحدى الطرق الصوفية المعروفة باسم المريد »

وأبادر فأقول : إنه ليس في الداغستان ، ولا في أي بلد من بلاد الله طريقة صوفية معروفة باسم « المريد » ، وإنما المريد كلمة عربية فصيحة واتحة المعنى جليلة المبنى اسم فاعل من أراد يريد ، وتطلق كلمة المريد في عرف الصوفية على كل سالك طريق من طرق الصوفية . وأما الطريقة التي يشير إليها الأستاذ وكانت موجودة في الداغستان فعلاً ؛ فهي الطريقة النقشبندية المشهورة ؛ ولكن هل هذه الطريقة هي صاحبة الفضل في انتشار اللغة العربية في الداغستان ؟ وما شأن الطريقة النقشبندية ؟ ومشايخ النقشبندية قوم بخاريون ؛ وليسوا من الحجاز ولا من نجد ؟

لا ... لا ... الواقع أن اللغة العربية في الداغستان قديمة بعريقة دخلت البلاد مع مرافقة بن عمرو ويكر بن عبد الله ، وعبد الرحمن بن ربيعة القواد الفاتحين في خلافة عمر بن الخطاب

رضي الله عنه سنة ١٢٢٠ هـ ومع إخوانهم الغزاة المجاهدين من كبار الصجابة والتابعين الذين اندفعوا كالسيل مجاهدون ويرايطون . ثم استقرت واطمأنت وأنت عصاها يوم وطد يسلمة ابن عبد الملك الحكم العربي في تلك الأصقاع في خلافة أخيه هشام سنة ١٠٥ هـ ، وكان يؤيدها على مر الأيام ذلك السيل الذي لا ينقطع من المرابطين الذين كانوا يقصدون إلى « دربند » — وهي ثغر من ثغور المسلمين — المرابطة في سبيل الله

بقي أن نقول كلمة عن مدى انتشار اللغة العربية وحدود استعمالها في بلاد الداغستان

فالأستاذ راشد رستم حاول أن يصورها لغة الأسرار والأحاجي (الشفرة) يلجأ إليها المحاربون والقواد إلى إخفاء شئونهم . ونشر للتدليل على ذلك رسالة بعث بها أحد نواب

الشيخ شامل إلى الشيخ شامل نفسه وقال : « ننشر نصها للدلالة على قدر معرفة بعضهم بهذه اللغة »

وهو يريد بهذا الإشارة إلى ضعف أسلوب تلك الرسالة وغموض موضوعها بعض الشيء

وأنا أكتب هذه الأسطر وبين يدي عشر رسائل مختلفة كتبت في الشئون العامة من شئون الناس في الحياة ، وفيها الطويل المسهب والقصير الموجز ، وليس فيها ما هو أدنى أسلوباً من الرسالة التي نشرها الأستاذ . بل إن فيها رسائل كتبت بأسلوب أدبي عال إلى حد ما . وكنت أريد إثبات بعضها لولا ضيق نطاق الصحف في هذه الأيام

وأما أيضاً قصيدتان إحداهما للشيخ غازي محمد الكمرأوي في تسعة أبيات ، والأخرى للشيخ اسحق المشهور بجبال قرباني في نحو أربعين بيتاً ، والقطعتان من الشعر الذي لا بأس به ، إذا لوحظ العصر الذي قيلت فيه ، وهو القرن التاسع عشر الميلادي ، والبلاد التي نشأ بها الشاعران وهي بلاد انقطعت صلتها بالحكم العربي من نحو ألف عام تقريباً وفي مكتبة رواق الأتراك في الأزهر الشريف قصيدة في نحو ألف بيت من الشعر القوي الرصين للشيخ نجم الدين الداغستاني

وهكذا إلى ما لا يحصى من الآثار الثرية والشعرية والعلمية التي خلفها الداغستانيون في اللغة العربية ، مما يثبت أن اللغة العربية في الداغستان كانت أوسع مدى وأكثر انتشاراً مما يبدو لأول وهلة . بل يثبت إلى حد ما أنها كانت لغة الثقافة العامة والثقافة الدينية بصفة خاصة . ومما يزيد هذا القول أنه كانت تصدر في الداغستان صحيفة عربية إلى وقت قريب ؛ أصدرها أحد العلماء قبيل الحرب العالمية الماضية باسم « الداغستان »

فإذا كان لا يفهم العربية في الداغستان إلا العلماء والمتفقهون — كما يقول الأستاذ راشد رستم — فهل في الداغستان من العلماء والمتفقهين تلك الكثرة التي تكفي لحياة صحيفة عربية ليس لها من القراء إلا هؤلاء العلماء والمتفقهون ؟ الواقع أن التعليم في الداغستان كان إلى حين قريب أهلياً

محضاً ودينياً خالصاً ، يقوم به أئمة المساجد في القرى والمدن ، فكان على الإمام في مسجده أن يعلم الطلبة الوافدين إليه العلوم الدينية والعربية . وكان الإقبال على هذا التعليم شائعاً بين الداغستانيين ؛ ولما

عدد الرسالة الممتاز

انظروا عدد الرسائل الممتاز في

اليوم السابع عشر من يناير

من يحسن القراءة والكتابة من فير هؤلاء الذين تعلموا في مدارس المساجد

على أنه قد أنشئت في المهود الأخيرة بعض المدارس المنظمة الحديثة ، وكانت عنايتها باللغة العربية شديدة إلى جانب العلوم الأخرى

فاللغة العربية في الداغستان هي لغة العلم والثقافة الدينية العامة ولغة الكتابة الغالبة .

وليس معنى ذلك أن الداغستانيين انسلخوا من قوميتهم ، لنتمهم الأصلية وتركوا عاداتهم وتقاليدهم وانقلبوا عرباً خالصين ؟ لا . فالقوم لا يزالون محافظين على مقومات قوميتهم من لغة وعادات وتقاليدهم ، ولكنهم مع ذلك مطعون أشد ما يكون المسلمون تعلقاً بدينهم وحباً للغة القرآن .

برهانهم بالصحف الداغستانية